قيم التسامح في تراثنا بين المبادئ والنتائج

✍ أ.د مسعود طيبي

المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– الجزائر

Résumé:

Traitant Notre Pensée Arabo - Islamique Comptemporaire, le sens du terme (la tolérance) influencée par la pensée occidentale moderne, à partir du 16 éme siècle , après les guerres religieuses entre les deux églises catholique et protestante qu' ont pris fin avec la tolérance, le thème de la tolérance est devenue ultérieurement la valeur de l'ère de la modernité occidentale , puis s'étend vers la liberté de pensée , et après le consensus occidental sur l'importance de la tolérance, Ils accusent les autres nations, en particulier l'Oumma islamique, par la violence, le terrorisme, et l'intolérance, ce qui la nation islamique à se défend contre les accusations, mais en théorie sans pratique, est-ce qu' elle est capable de les convaincre?

الكلمات المفتاحية:

التسامح، القيم، التراث الإسلامي، الحروب الدينية في أوروبا.

يتنأول فكرنا المعاصر مصطلح التسامح، بالمعنى المتدأول اليوم، متأثرا بالفكر الغربي الحديث، الذي أخذ يهتم بالمصطلح ومعناه "ابتداء من القرن السادس عشر بعد حروب دينية عنيفة بين الكنيستين؛ الكاثوليكية والبروتستانتية، انتهت بالتسامح، ثم أصبح التسامح بعد ذلك مطلبا لكل الأديان والمتدينين، وامتدت قيمته خلال القرن التاسع عشر لتشمل حرية الفكر في الغرب"[1].

وإذا تطرقنا إلى مفهوم التسامح في الغرب، لا يخلو ذهننا من تصور التعصب الديني لرجال الكنيسة ضد مواطنيهم الذين قد يخطر ببالهم بعض الأفكار المتحررة المستقلة، خاصة بعد انتشار أفكار فلسفة ابن رشد وغيره من الفلاسفة المسلمين في أوروبا،

والتفاف طلبة الجامعات الأوروبية حولها ابتداء من القرن الثالث عشر ميلادي، خاصة جامعة باريس وجامعة بادوا (Padoue) بايطاليا، فكان رد فعل الكنيسة متعصبا وعنيفا.

وأهم ما بادرت به الكنيسة للوقوف في وجه الأفكار العقلانية الحرة للمسلمين، خوفا من توغلها في قلوب وعقول الأوروبيين، بشكل واسع، فأنشأت محكمة التفتيش[2]، وفرضت المراقبة الشديدة على المطبوعات لمقأومة الفلسفة الرشدية والعلم، تجنبا لانتشارها بسعي تلامذة ابن رشد[3]. فكانت نتائجها بعد ثمانية عشرة شهرا، أي خلال الفترة مابين1481 و1499 كالآتي[4]:

– حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين (10220) شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء، فاحرقوا.

– وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين (6860) شخصا بالشنق بعد التشهير بهم، فكان ذلك.

–. وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين (97023) شخصا بعقوبات مختلفة، فنفذت.

– أحرقت كل توراة بالعبرية.

– أصدر مجمع كنيسة القديس (لا تيران) سنة 1502 أمرا يَلعَنُ بموجبه كل من ينظر في فلسفة ابن رشد.

لقد كان يشعر المسيحيون الذين قد يخطر ببالهم شيء من نور الفكر، نتيجة الرعب والخوف والهلع الشديد الذي استولى على قلوبهم، أن رسل الشؤم تتبعهم دائما.

وقد ذكر أحد المؤرخين[5]، معبرا عن عواطف المسيحيين وخيبة أملهم، بأنه "كان يستحيل أن يكون الشخص مسيحيا ويفكر في أنه سيموت (ذات يوم) على فراشه"[6].

أعقب هذا، صراع دموي كبير بين الطوائف الدينية الكاثوليكية والبروتستانت، بعد ظهور حركة الإصلاح الديني بزعامة (مارتن لوثر) Luther Martin 1483/ 1546 سنة1417 .

ولا يفوتنا ذكر المآسي الأوروبية والحروب الدموية بين الممالك الأوروبية نتيجة التعصب الديني والسياسي والثقافي، ثم كيف تم نقل هذه الحروب والويلات في شكل استعمار غربي حديث –فيما بعد– إلى بلدان العالم الثالث، تجسيدا للأحقاد الصليبية الدفينة، والأطماع البرجوازية، والأنانية الضيقة، والتفرقة العنصرية بين البشر والأجناس.

وابتداء من النصف الثاني للقرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، نتيجة تفاقم مخاطر هذه الإرهاصات، بدأت تطفو على الساحة الثقافية في الغرب، بوادر فكرية وفلسفية إصلاحية تدعو إلى التعقل ونشر ثقافة التسامح نظريا وعمليا، على مختلف المستويات؛ الدينية والسياسية وغيرهما.

فكان من الذين حملوا لواء التسامح على المستوى الفكري والفلسفي، جون لوك Locke John (1705/1632)، الذي ألف رسالة في التسامح، وكذلك فولتير Voltaire(1694/ 1778)، وتبعتهم محاولات أخرى كثيرة.

أكدت رؤية جون لوك في هذه الرسالة، على التسامح كمطلب ضروري للواقع الأوروبي على مستوى النظري، وعلى مستوى الممارسة العملية بين مختلف الطوائف الدينية(7)، والاتجاهات السياسية، والمذاهب الفلسفية، وبين الافراد ذاتهم، معياره في ذلك، هو ينبغي أنه "كما يتوخى المرء المحافظة على كيانه، وطالما أنه لا يخشى المنافسة، فإنه لا بد وأن يستهدف بالتالي، المحافظة على كيان الآخرين، وعلى حياتهم، وحريتهم، وصحتهم، ومصالحهم الخاصة"[8].

وأهم ما ركز عليه جون لوك في هذه الرسالة حول التسامح، هو أن سبب التعصب يكمن في الدوغماتية الدينية والمذهبية وادعاء أصحابها "بلوغ الحقيقة المطلقة وامتلاك اليقين على نحو ما يفعل علماء اللاهوت، فيفسح المجال على اتساع بلا حدود للخيال

والخرافة وجميع دواعي التعصب والحمية"[9]، وكما يقول؛ ماذا يقصد أولئك الذين يقولون بأن الإيمان ينبغي أن يكون مستبعدا من الهراطقة؟ إنهم يقصدون، أنه من حقهم وحدهم القول بهذا الاستبعاد، لأنهم يظنون أن كل الذين لا ينتمون إلى تجمعهم هراطقة"[10]، ومعناه، أن "كل كنيسة بالنسبة إلى نفسها هي مستقيمة الايمان، وبالنسبة إلى غيرها هي ضالة وهرطقية، فكل كنيسة تعتقد أن ما تعتقده هو الحق، وتعتقد أن ما ينطق به على الضد من ذلك هو خطأ"[11].

وفند جون لوك أن تكون الحقائق الدينية واللاهوتية حقائق مطلقة، تتجأوز قدرة العقل كما يدعي رجال اللاهوت، بل هي حقائق إنسانية لا تتجأوز العقل ولا تناقضه، "لأنه ما قيمة أن يوحي الله بشيء يتجأوز قدرات العقل الإنساني؟ فالمطلق عند جون لوك مستحيل معرفيا، فهو ليس في متنأول قدراتنا وملكاتنا الطبيعية، وعلى هذا فإن التسامح الديني واجب وجوبا عقليا"[12].

وانطلاقا من هذا، دعا من أجل نشر وتجسيد مبدأ التسامح بين مختلف الاديان والطوائف والمعتقدات، إلى سيادة العقل الذي يتفق عليه الجميع، والرجوع إلى الدين كما بشر به اليسوع، أي الدين الطبيعي الذي لا يناقض العقل البشري ولا يتجأوزه إلى المطلق، إذ يقول: "إن التسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين يتسق تمأما مع العهد الجديد الذي أتى به السيد المسيح، كما يتماشى مع مقتضيات العقل الانساني (السليم)"[13].

كما دعا إلى فصل السياسة عن الدين حفاظا على اختلاف الأديان، والطوائف والمذاهب، إذ أن الكنيسة ذاتها، كما يرى، "منقصلة عن الدولة ومتميزة عنها تمأما، فالحدود بينهما ثابتة ومستقرة، ومن يخلط بين هذين المجتمعين كمن يخلط بين السماء والأرض"[14].

وما استخلصه الأوروبيون من طرحهم لمسألة التسامح ومناقشتها، هو أن التسامح عندهم أصبح مطلبا أساسيا للحداثة، وأصبح يعرف عصر الحداثة عندهم بالتسامح، فهما عملة وأحدة ذات وجهين مختلفين.

وبعد استقرارهم وإجماعهم على أهمية التسامح على المستويين النظري والعملي، وهو الشيء الذي أصبح يفتخر به أمام الأمم الأخرى، كقيمة أخلاقية واجتماعية متفقا على أهميتها سياسيا وعقائديا وفلسفيا، امتدت اتهأماتهم إلى الأمم الأخرى، وسيما الأمة الإسلامية، إذ أصبح الدين الإسلامي والأمة برمتها هدفا محققا لرميه بالتعصب وعدم التسامح والإرهاب والاستبداد والأنانية التي لا حدود لها، وهو ما أدى إلى تخلف فكرنا. في نظرهم . وانتشار الفوضى والفتن السياسية والطائفية، والحروب الأهلية والصراعات الإيديولوجية والثقافية وغيرها.

ونشير هنا، في إطار اتهام الأوروبيين والغربيين عامة، للمسلمين بالتعصب وعدم التسامح، إلى ما كتبه فولتير Voltaire (1778/1694) عن الرسول صلى الله عليه وسلم، كأحد المفكرين المحدثين في الغر ب، وهو من الذين دعوا إلى التسامح وله رسالة في ذلك . إذ عنون كتابه هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام، بـ: التعصب أو محمد النبي[15]. أتهم من خلال شخص محمد في هذه التراجيديا، الدين الاسلامي بالتعصب والتطرف، كما يبدو له.

فما موقف المسلمين من هذا؟

وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم ورد التهم الموجهة إليهم، ولكن نظريا لا عمليا، حججهم في ذلك إظهار الإطار النظري للتسامح في دينهم، على مختلف الأنحاء والمستويات.

أولا. على المستوى العقائدي:

-كقوله تعالى: "لا إكراه في الدين"[16]، وهذا يدل على التسامح مع الآخر أي الكافر، وتقدير حرية معتقده، واختياره، فلا يجوز لأحد مهما كان صاحب سلطة دينية أو سياسية أو غيرها أن يرغم أحدا ما على اعتناق الإسلام بالقوة.

- ورد في القرآن أيضا؛ "فإذا الذي بينك وبينه عدأوة كأنه ولي حميم"[17].

- نزلت الآية في حق أبي لهب، حسب تفسير الفيروز آبادي (توفي سنة 817 هـ)، يأمر الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم، بالدفاع عن نفسه من الشرك، عند دعوته لأبي لهب، وأن يعامله بالحسنى واللطف والسلم، وكأن أبا لهب ولي حميم، رغم عدأوته له، لعله يصير كذلك إن آمن[18].

- وفي القصاص؛ "يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي من أخيه شيء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم"[19].

- نلاحظ كيف أن عقوبة القصاص بالموت تتحول إلى أداء بالمعروف بعد العفو من المتضرر ولي الأمر.

- كما نلاحظ هنا، كيف أن المشرع وهو الله عز وجل، يتنازل عن حقه في التشريع لصالح الطرفين، المدعي والمدعى عليه، أو الجاني والضحية، فيتحول القصاص بالموت إلى أداء بالمعروف، نتيجة عفو أهل الضحية عن الشخص الذي ألحق الجناية بقريبهم.

- إن القصاص هنا وهو ما يقابل العقاب، في القوانين الوضعية، لم يكن مطلقا بل كان نسبيا ومرنا، تميزه الليونة، يترأوح بين درجة دنيا تتمثل في تسديد المعروف، ودرجة عليا تتمثل في القصاص بالموت.

- إن المصطلح الذي اصطلح عليه القرآن الكريم في هذا المعنى، هو ليس التسامح فقط، كما هو عند الغرب، وإنما هو أعمق من ذلك وأبلغ، وهو العفو.

ثانيا: على المستوى السياسي:

يذكر على هذا المستوى حديث الهجرة، وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام، أول ما نزل وهو في طريقه إلى المدينة المنورة بقباء التي مكث بها ثلاثة عشر يوما، أسس فيها أول مسجد في الإسلام، ولما هم بمواصلة سيره نحو المدينة المنورة، اعترض سبيله بنو عوف بن عمر أهل القبيلة التي نزل بها، طالبين منه البقاء بينهم، فقال صلى الله عليه وسلم: إني أمرت أن أنزل بقرية تأكل القرى، خلوا سبيل الناقة، فخلوها"[20].

إن دل هذا الحديث النبوي الشريف على شيء لدى العامة، فهو يدل على أشياء كثيرة وعظيمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والخاصة من الناس، منها:

– قيام مفهوم الدولة بالمدينة المنورة ومفهوم الأمة الإسلامية الوأحدة التي تنصهر بموجبها الفوارق التي طالما فرقت الأمم والشعوب، وتتفتت العصبيات القبلية، فيذوب مفهومها في مفهوم الدولة الإسلامية التي سيؤسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة[21].

– وفي الحديث دلالة أخرى، لا تقل أهمية عن الأولى وهي: أن حياة العرب المعروفة بحياة البدو والرحل في معظمها ستنتقل بموجب الهجرة، إلى حياة التمدن والحضارة، وتحول الحياة البسيطة إلى حياة النظم الاجتماعية والسياسية المعقدة، حياة الدولة الإسلامية الفريدة في نوعها، والتي لم يسبق للأمم والشعوب ولا للأفراد والجماعات، أن عرفوا أو سمعوا عنها، إنها نظام حكم جماعي عادل أساسه الشورى بين المسلمين، في كل ما يتعلق بحياتهم ومصالحهم الخاصة والعامة، وهو أقصى ما يمكن تحقيقه من التسامح السياسي[22].

دستور المدينة المنورة:

إن دستور المدينة المنورة يثبت ويجسد معنى الحديث السابق، (إني أمرت أن أنزل بقرية تأكل القرى) إذ بموجب نزوله بالمدينة المنورة وبناء مسجده ولم شمل الأمة، بادر بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، فكانت المؤاخاة والمسأواة على الحق بما في ذلك حق التوارث، فالرجل يرث صاحبه الذي تآخى معه حتى ولو لم يكن من أقاربه "إن

الأخوة في الدين تقوم مقام الأخوة في النسب، وبذلك حلت الأمة والملة محل القبيلة والعشيرة"[23].

لم يكتف النبي عليه الصلاة والسلام بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين فقط، بل امتد عمله لجمع شمل أهل المدينة بل الدولة برمتها، فكتب كتابا (قول ابن هشام عن ابن إسحاق) بين المهاجرين والأنصار وَادَعَ فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم"[24].

إذ وجد النبي عليه الصلاة والسلام نفسه، بعد نزوله واستقراره بالمدينة المنورة، أمام مجتمع حديث النشأة، خليط الأنساب والأعراق، متعدد الأديان والمعتقدات، اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون على اختلاف قبائلهم ومشاربهم، بالإضافة إلى اليهود وما تميزوا به في يثرب، والأقلية الوثنية التي كان أفرادها لا يزالون على حال الجاهلية، فكان لابد من وضع دستور. وهو جزء لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية. ينص على أن المسلمين (مهاجرين وأنصارا وغيرهم) ومن والاهم، ومن المؤمنين (أهل الكتاب، واليهود والنصارى) ومن والاهم، وحتى الوثنيين المتواجدين بيثرب الذين رفضوا دخول الإسلام، يؤلفون أمة وأحدة، ويلتزمون بما جاء في الوثيقة من شروط مقابل حرية الاعتقاد والديانة والحماية لهم ولحقوقهم، جاء في مقدمته[25]، بعد بسم الله الرحمن الرحيم، "هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة وأحدة". إلى أن يقول في حق اليهود.

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ[26] إلا نفسه وأهل بيته.

ثم يذكر قبائل اليهود المتواجدين بالمدينة وغيرها، وأحدة وأحدة، ويقرهم على ما أقر به يهود بني عوف، فيذكر يهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعده، ويهود بني جسم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة.

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن "على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن من بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينه النصح والنصيحة والبر دون الإثم"[27].

وفي العلاقة السياسية بين الحاكم والمحكوم، وما تقتضيه من عفو وتسامح مع الآخر، هو ما تمخض من نقاش أهل السنة حول أهم مسألة في سياسة الدولة وهي مسألة خلع الأمام والخروج عن طاعته عند استبداده وجوره، إذ "أنهم لا يرون الخروج عن الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الفساد في القتال والفتنة (فتنة قتال الحاكم) أعظم من الفساد بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيرفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى"[28].

ويذكر محمد عبده، أنه " إذا فارق الكتاب والسنة في عمله، وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة"[29].

والأصل الذي يرد إليه هذا الحكم أو هذه الفتوى، هو ما نص عليه معنى قوله صلى الله عليه وسلم، "مائة سنة من الجور والاستبداد أهون من ليلة وأحدة في الفتنة"[30].

إلا أن موقف أهل السنة هذا رغم الإجماع عليه فهو يوصف بالسلب لا بالإيجاب في نظر النقاد المعاصرين.

ولتجنب الجور والاستبداد والفتن والتعصب والفساد السياسي، ركز عمر بن الخطاب عند ترشيح الأشخاص لتولي الأمر والمسؤولية، على مكانة الشخص في المجتمع، ومدى ما يتميز به من كفاءة ونزاهة واستحقاق، ومن كانت رياسته في الناس رياسة طبيعية، مثل ما ذكر عنه محمود العقاد، إذ قال: أن عمرا قال لأصحابه: دلوني على رجل استعمله، فسألوه ما شرطك فيه؟ قال: إذا كان في القوم وهو ليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم"[31].

وخطبة أبي بكر في الناس يوم تنصيبه خليفة للمؤمنين، دلالة قاطعة على العلاقة الطيبة التي يقتضي أن تكون بين الحاكم والمحكومين، ومتى تجب طاعته، أو الخروج عنه وخلعه عن الحكم، إذ قال :"أما بعد؛ أيها الناس فإني وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وأن أسأت فقوموني.. اطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.."[32].

ونختم بما شاع قوله عن معأوية بن أبي سفيان، في أمر التسامح والليونة والحوار والوفاق والرضا بين من يمثل السلطة السياسية ومن يجب أن يخضع لها ويطيع، وهو ما يعرف في تراثنا السياسي بشعرة معأوية[33] التي لا تنقطع أبدا، بفضل دهاء الحاكم ومرونته وتواضعه لأمته التي يسوسها.

ثالثا: التسامح الفكري والفلسفي:

إن مثل هذا الإطار النظري للتسامح، هو الآخر لا يخلو منه تراثنا الثقافي على المستوى النظري والتاريخي.

أهمه، في تاريخنا الحضاري والفكري، احتضان المسلمين للفلسفة اليونانية ومنطقها ولثقافات وعلوم غيرها، دون تعصب، رغم وثنيتها والاختلاف معها عقائديا.

لم تستجب الأمم الأخرى لهذا رغم عراقتها الحضارية كالروم والفرس والهند والصين واللاتين وغيرها، إذ أصبح أرسطوطاليس صاحب المنطق المعلم الأول في فلسفتنا، وأصبح الفارابي المعلم الثاني بعد أرسطو، وهو ما جعل زكي نجيب محمود يتساءل "لماذا لم تستجب الهند مثلا للمنطق الأرسطي استجابة العرب؟ (ثم يجيب) هو أن وقفة العربي من الأمور طابعها العقل، ولو لم يسبقها أرسطو بمنطق يسدد خطاها، لكان حتما على العرب أن يستخلصوا لأنفسهم"[34] منطقا.

وفي إطار العلاقة بين العقل والنقل، ومدى درجة التسامح مع العقل لدى أهل الملة الإسلامية، واتساع فضاء الحرية أمامه، ذكر ابن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، قائلا: فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا

يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له، (إلى أن يقول) أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة (لها) .. وهما المصطحبتان بالطبع والمتحابتان بالجوهر والغريزة"[35].

وأكثر من هذا، فقد وصلت بهم الموازنة والمقايسة، إلى درجة ترجيح العقل على النقل عند الضرورة، حيث يقول محمد عبده، "لقد أتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما دل عليه العقل"[36]، وهو المعيار المؤكد عليه أيضا في فلسفة ابن رشد، كما ذكرنا، إذ يقول: ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع، إن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي (وكما يرى) فإن هذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب فيها مؤمن"[37].

إن الإسلام لا يتساهل مع مسألة تكفير الناس والحكم عليهم لأتفه الأسباب، ولا يتعصب للعقيدة ولا يضيق الخناق على ذوي الزلات في القول والفعل، وقد ذكر محمد عبده معيارا شرعيا يؤكد فيه، أنه "إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه وأحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر"[38].

وقد تساءل محمد عبده بعد عرضه لهذا المعيار، قائلا: "فهل رأينا تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم (أو الفيلسوف) أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الإيمان من وجه وأحد من مائة وجه؟"[39].

الخاتمة:

نستنتج أن الإطار النظري للتسامح والتصافح وعدم التعصب في تراثنا ثري وعميق لا ينكره أحد، ولكن هل يمكن أن يصمد الاستدلال به في هذا العصر للرد على اتهامات الغرب؟ وإصلاح ما نعيشه في الواقع؟

والجواب هو لا. لأن هذا لا يدفع التهم عنا، ولا يزيل ما بنا من التعصب والعنف وعدم التسامح، ولا يقنع الغرب، لأنه لا يتطابق مع ما نقوم به في الواقع على مختلف

الأنحاء والأصعدة في علاقة بعضنا ببعض، أي علاقة الأنا بالغير، وعلاقة الفرد بالمجتمع، والدولة، وعلاقة دولنا بالدول الأخرى والعالم برمته.

إن قيمنا النظرية لا تنفع، وتعليم هذه القيم لأجيالنا لا يثمر شيئا، مصيره كالسيل في الرمال، وتعليمنا النظري في مؤسساتنا هو الآخر لا ينفع، لأننا لا نتبع النظري بالتطبيق، وقد استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام بعلم لا ينفع.

وحينما ما سئلت عائشة رضي الله عنها، عن سلوك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قالت: "كان خلقه القرآن"[40]، ومن السلف مَن ذكر أنها قالت: "كان قرآنا يمشي[41]" -إن صح هذا القول- ولم تقل كان قرآنا يحفظ ويفسر ويجلد وتزين به خزائن البيوت والقصور دون تطبيق.

إن الغربيين وصلوا إلى ما وصلوا إليه من تسامح وتصافح وعقلنة للنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ككل، نتيجة تفعيل العلوم والقيم النظرية في واقعهم الحضاري.

إن العلم الغربي أصبح علما حقيقيا، لأنه تجسد في الواقع، وأصبح العلماء الغرب علماء حقيقيين لأنهم لم يرضوا بالقيم والعلوم النظرية إذ لم تمتد إلى واقعهم، فالعلم والعلماء أول من حمل راية الحداثة في الغرب، ممثلة في حرية الفكر وقبول الآخر والاستماع إليه، وتقدير موقفه واستقلاله الذاتي في الرأي، وتشجيع الحوار والتسامح والتصافح في الواقع لا في الخيال، إذ يذكر أنه في بداية القرن السابع عشر، عصر الحداثة التي يطبعها التسامح والحرية ووعيي العلماء، أن (نابليون) لم يجد "عالما وأحدا يستطيع أن يجعل من الاستبداد نظأما .[42] لأن الروح العلمية أكثر إنسانية من آلية الحكومات"[43]..

النتيجة: أننا لا نستبشر خيرا في امتلاكنا للإطار النظري وللقيم والعلم، في تراثنا الثقافي والعلمي والديني، ما لم يمتد بنا الأمر إلى الواقع الذي يتطابق بموجبه النظري بالعملي.

الهوامش:

[1]- André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, volume 2, 4e éd, p.u.f.1997, P1133.

[2]- بأمر من الراهب توركما ندا.

[3]- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة، موفم للنشر، الجزائر1987، ص:33.

[4]- انظر: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة، محمد عبده، مرجع سابق، ص53.

[5]- باغلياديس.

[6]- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة، مرجع سابق، ص:33.

[7]- فريال حسن خليفة، الفلسفة والتسامح والبيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة2006، ص:39.

[8]- جون لوك، الحكومة المدنية، ترجمة محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، دون تاريخ، ص15.

[9]- نفسه، ص53.

[10]- جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سنه، المجلس الاعلى للثقافة، ط. 1 مصر1997، ص56.

[11]- نفسه، ص33، 34.

[12]- حسن خليفة، الفلسفة والتسامح والبيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة2006، ص:53.

[13]- جون لوك، رسالة في التسامح، مرجع سابق، ص23.

[14]- نفسه، ص36.

[15]- Voltaire, le fanatisme ou Mahomet le prophète, tragédie, à Amsterdam chez ESTIENNE LEDET compagne MDCC 111 edition 1753.

[16]- سورة البقرة، الآية 256.

[17]- سورة فصلت، الآية 34.

[18]- الفيروز آبادي، تفسير الفيروز آبادي، أنظر موقع التفسير الالكتروني:

http://main.altafsir.com/Tafasir.asp?tMadhNo=2&tTafsirNo=10&tSoraNo=41&tAyahNo=34&tDisplay=yes&UserProfile=0&LanguageId=1

[19]- سورة البقرة، الآية 178.

[20]- أخرجه مالك في الموطأ، باب الدعاء للمدينة، ج2،حديث رقم05، كما أخرجه البخاري ومسلم أيضا.

[21]- المتحدث، في كتاب الجماعية في الحكم عند المسلمين والديمقراطية لدى اليونانيين والرومانيين، دراسة تحليلية مقارنة في الفلسفة السياسية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر2007،ص:109.

[22]- نفسه، ص: 109.

[23]- محمد العابد الجابري، نقد العقل العربي (العقل السياسي في العرب) محدداته و تجلياته، المركز الثقافي العربي، ط.1، المغرب 1999، ص:96.

[24]- ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، دار أحياء التراث العربي، بيروت . لبنان ص: 147.

[25]- ابن هشام، نفس المصدر، ص: 147.

[26]- لا يضر.

[27]- ابن هشام، نفس المصدر، 50.

[28]- محمد أبو زهرة، الوحدة الاسلامية، دار الرائد العربي، بيروت . لبنان، دوم تاريخ.

[29]- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة، مرجع سابق، ص: 79.

[30]- معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحاكم الجائر.

[31]- عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، مكتبة رحاب، ط. الجزائر، 1410 / 1989م، ص:107.

[32]- من خطاب أبي بكر عقب بيعته، أخرجه ابن كثير عن رواية أنس بن مالك، كتاب البداية والنهاية، الصفحة أو الرقم، 218/5.

[33]- إذا شدوا عليها أرخيها، وإذا أرخوا أشدد عليها.

[34]- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ط.6 دار الشروق، بيروت . لبنان 1400هـ \1980م، ص: 313.

[35]- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، طبع بمطبعة الآداب المصرية، 1317هـ ص:08.

[36]- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، مرجع سابق، ص23.

[37]- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، مصدر سابق، ص 08.

[38]- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، مرجع سابق، ص:73.

[39]- نفسه، ص: 73، 74.

[40]- أخرجه الطبراني، المعجم الوسيط، الصفحة أو الرقم، 30/1.

[41]- قال الشيخ ربيع المدخلي، جوابا عن من سأله عن هذا القول: بأنه ينبغي أن نقول؛ كان خلقه القرآن، كما قالت عائشة -رضي الله عنها- والقرآن كلام الله وليس بمخلوق، ومحمد عليه الصلاة والسلام، بشر مخلوق، ولا ينبغي أن نقول هذا. أنظر الموقع الالكتروني التالي. http://www.sahab.net/forums/index.php?showtopic=103036

[42]- يذكر صاحب النص أن الشخص الوحيد الذي فعل ذلك هو هيجل، ولهذا عاب عليه ذلك وقلل من قيمة علمه، بل استهزأ بأطروحته في الدكتوراه حول الأجرام السمأوية السبعة.

[43]- ح. برونوسكي، العلم والقيم الإنسانية، ترجمة عدنان خالد، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد 1410هـ\ 1999م، ص:108.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- الحديث النبوي الشريف.

3- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة، موفم للنشر، الجزائر1987.

4- جون لوك، الحكومة المدنية، ترجمة محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، دون تاريخ.

5- جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سنه، المجلس الاعلى للثقافة، ط. 1 مصر1997.

6- فربال حسن خليفة، الفلسفة والتسامح والبيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة.

7- أخرجه مالك في الموطأ، باب الدعاء للمدينة، ج2، حديث رقم05، كما أخرجه البخاري ومسلم أيضا.

8- طيبي مسعود، الجماعية في الحكم عند المسلمين والديمقراطية لدى اليونانيين والرومانيين، دراسة تحليلية مقارنة في الفلسفة السياسية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر2007.

9- محمد العابد الجابري، نقد العقل العربي (العقل السياسي في العرب) محدداته و تجلياته، المركز الثقافي العربي، ط.1. المغرب 1999.

10- ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، دار أحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.

11- عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، مكتبة رحاب . ط.1 الجزائر، 1410هـ/ 1989م.

12- من خطاب أبي بكر عقب بيعته، أخرجه ابن كثير عن رواية أنس بن مالك، كتاب البداية والنهاية، الصفحة أو الرقم، 218/5.
13- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ط.6 دار الشروق، بيروت . لبنان 1400هـ/ 1908.
14- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، طبع بمطبعة الآداب المصرية، 1317هـ.
15- محمد أبو زهرة، الوحدة الاسلامية، دار الرائد العربي، بيروت . لبنان، دوم تاريخ، 267.
16- حديث عائشة، أخرجه الطبراني، المعجم الوسيط، الصفحة أو الرقم، 30/1.
17- الشيخ ربيع المدخلي، جوابا عن من سأله عن هذا القول: الموقع التالي:
http://www.sahab.net/forums/index.php?showtopic=103036
18- ح. برونوسكي، العلم والقيم الإنسانية، ترجمة عدنان خالد، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد 1410هـ/ 1999م.
19- André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, volume2, 4e éd, p.u.f.1997.
20- Voltaire, le fanatisme ou Mahomet le prophète, tragédie, à Amsterdam chez ESTIENNE LEDET compagne MDCC 111 edition 1753.